متاهة الشعراء

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

عَثَرْتُ على الصومعةِ الرُّخاميةِ بمحضِ المصادَفَةِ. كانت في شكلِ برج «بيزا» الإيطالي المائلِ، ولكنها ملساءُ ناعمةٌ إلاَّ مِنْ بعضِ ما نُقِشَ عليها من نُقوشٍ بعددٍ من اللغاتِ، بما فيها العربيةُ.

كنتُ دون العشرين، وكنتُ في قافلةٍ من أهلِ مدينتنا الصغيرةِ «أصيلةَ» في طريقنا إلى قِمَّةِ «جبلِ العَلَمِ» لزيارَةِ مُنْتَجَعِ «مولايَ عبدِ السلامِ بنِ المشيشِ» السياحي. وكنا نخترقُ الغابةَ الكثيفةَ التي تغطِّي سَفْحَ الجبلِ الشاهقِ. وتوقَّفتِ القافلةُ للاستراحَةِ، فقد كان السفرُ بالدوابِّ وعلى الأقدامِ.

وكنت أُحِبُّ المغامرةَ وتفتِنُني الأماكنُ العذراءُ. فتركتُ القافلةَ، ودخلت الغابةَ، ومشيت في غيرِ طريقٍ بين أشجارِ الفلِّينِ المتشابكَةِ، أَنْعرِجُ حيثما انفتَحَ مسلَكٌ أمامي، حتى أحسسْتُ أني وصلتُ قلْبَ الغابةِ البكْرِ الذي لم يسْبقْني إليه أحدٌ! ووقفتُ أُنْصِتُ إلى أصواتِ الغابةِ الحيَّةِ، وأجولُ ببصري بين أغصانِها المشابكَةِ فوقي.

وحين أردتُ الرجوعَ، تشابهتْ عليَّ المسالكُ، ووقفتُ

حائراً، أبحثُ عن طريقِ عودتي. لم أستطعْ الاهتداءَ بالشمسِ، فقد كان الوقتُ زوالاً، وسِرْتُ على غيرِ هُدى، أبحثُ عن مُرتَفَعٍ أتسلَّقُهُ إلى قِمَّةِ الجبلِ. ولكن الأرضَ تحتي كانت تزيدُ انبساطًا.

وبعد حوالَيِ الساعةِ من المشْيِ العَشْوائي، ومقاوَمَةِ الفزَعِ الذي كان يمدُّ يدَه البارِدةَ إلى قلبي، سمِعتُ صوتًا آدميًا أمامي، فتوجهتُ نحوَهُ. كان صاحِبهُ يراني ولا أراه. فقد كان يوجِّهُني إلى ناحيتِه، كلما انحرفتُ عن الطريقِ.

وفجأةً، خرجتُ إلى ساحةٍ واسعةٍ خاليةٍ من الأشجارِ، وفي وسَطِها مِسَلَّةٌ ملساءُ عاليةٌ من الرُّخامِ الورْديِّ الفاتحِ، شبيهةٍ ببرج «بيزَا» المائل، إلا أنها كاملةُ الاستقامَةِ والاستِدارَةِ، وعلى رأسِها قُبَّةٌ لامعةٌ.

ولم أرَ الرجلَ المعلَّقَ بها، إلاَّ حين ناداني باسْمي: «تعالَ، يا عبدَ السلامِ.» وزايلني الفزَعُ، واسْتأنسْتُ بوجُودِ شخصٍ يعرِفُني، رغمَ أني لا أعْرِفُه. كان يقفُ على حواليَ نِصْفِ دَسْتةٍ من الآجُرِّ الأخضَرِ الكبيرِ، وهو عارٍ إلاَّ من سُتْرَةٍ صغيرةٍ.

كان مشغولاً بنقْشِ شيءٍ مَّا على الصخرةِ بإزميلٍ ومطرقَةٍ.

واقتربتُ منه، فكَفَّ عن الطَرْقِ، كأنما ليستريحَ، والْتَفَتَ إليَّ. كان في حواليَ الثلاثين، وله وجهٌ جميلٌ مستديرٌ، وعينانِ صغيرتانِ زرقاوانِ، وفوق فَمِهِ الصغيرِ شاربٌ هتْلري، كان موضةَ ذلك العَصْرِ. وسلَّمتُ عليه، فرحَّبَ بي، واعتذرَ لي عن عدم قُدْرتِهِ على النزولِ. ونظرتُ إلى ما كان ينقُشُ، فإذا هي حُرُوف الأَلِفِ والباءِ والراءِ. فسألتهُ، وقد استبدَّ بِي الفُضولُ:

– هل تسمح لي بمعرفة ما تنقشون؟

– أَنقُشُ اسمي، أنا إبراهيمُ الإلْغيُّ.

فسرَى اسْمُهُ في جسْمِي كتيَّارٍ دافئٍ، وصِحْتُ سَائلاً:

– الشاعرُ الكبيرُ، سيدي إبراهيمُ الإلْغِي؟!

فرد مبتسمًا:

– بل الشاعرُ الصغيرُ، خادِمُكُم المتواضِعُ!

– بالعكس! أنتم أشعَرُ شعراءِ شمالِ المغربِ، بدون مُنازِعٍ!

– لو كنتُ شاعراً عظيمًا، كَما قلتَ، لكان اسْمِي على

قُبَّةِ الصخرةِ، وليس هنا، تحت حزامها.

– وما يمنعكَ من نقْشِه هناك؟

فنظر إلى موطئِ قدمَيْه، وأجاب:

– الآجُرُّ الأخْضَرُ، فليسَ لي منه إلا ما تَرَى!

– وما يمنعُكَ من وضعِ آجُرٍّ أكثرَ تصلُ به إلى القِمَّةِ؟

فابتسمَ صابراً وقال:

– ستعْرِفُ ذلك، في وقتِه. أما الآنَ، فأْتِ بآجُرِّكَ، وتعالَ لتنقُشَ اسمَك، أنتَ كذلك.

– أنا؟! أنا أنقُشُ اسمي إلى جانبِ اسمِك؟!

– لا تسْتَكْثِرْ ذلكَ على نفسِك؛ فأهْلُ الصخرةِ أدرَى بأسْرارِها. ألَمْ تَهِمْ على وجْهِكَ في الغابةِ؟

– بلى، ولكِنْ، ما علاقةُ ذلك بنَقْشِ اسْمي على الصخرةِ؟

– لا أنت، ولا أنا، ولا الذين سَبقُونا إلى هُنا، دخلوا الغابةَ إلا حين سمعوا النداءَ. وكان يُمكِنُ أن تَظَلَّ بقيةَ عُمُرِك تائهًا، دون أن تصِلَ إلى ساحةِ الصخرةِ. وكان يمكِنُ أن تصلَ إلى الساحةِ ولا ترى الصخرةَ!

وكنت حديثَ العهدِ بالفوْزِ بجائزةٍ في مباراةٍ شعريةٍ وطنيةٍ، فكنتُ مُنْتَفِخًا كالطاوُس، ولا تسَعُني الدنيا بما رَحُبَتْ!

وجذبني كلامُه، فوقفتُ أُنصِتُ إليه بفمٍ نصفِ مفتوحٍ. ولم أُطْبِقْ فَمي، حتى أَمَرني أن آتيَ بآجُرِّي، وأَصْعَدَ إلى مكاني من الصخرةِ، لأنقشَ اسْمي، قبلَ نُزُولِ الليل.

والتفتُّ إلى حيثُ أشارَ، فرأيتُ ثلاثَ آجُرَّاتٍ خضراءَ كبيرةٍ منقوشٌ عليها اسْمي، وفوقَها مِطْرَقَةٌ وإزميلٌ. فنقلتُها إلى جانبِه، وصعِدْتُ عليها، وبَدأْتُ أطقطِقُ. ونظرت إلى فوق، فإذا عددٌ من أسماءِ الشعراءِ أعرِفُ بعضَهم وأجَهلُ البعضَ الآخرَ. وكلما رفعتُ بصري كانت الأسماءُ تزيدُ ضخامةً ولمعانًا وشُهرةً.

وأحسستُ بحرارةٍ مفاجئةٍ، وبالعَرَقِ يتصبَّبُ على سائر جِسْمي. فنزلتُ ونزعت ملابسي الفوقيةِ، ثم عدتُ إلي النقشِ، وفهمتُ لماذا كان الشاعرُ الإلغي نصفَ عارٍ.

وأتمَّ هو نقشَ اسمِه قَبْلي، وقفزَ إلى الأرْضِ، وراح يرتدي

ملابسَه على عَجَلٍ، وقال لي: «أرجو أن نتقابلَ في يوم ما على القِمَّة!»

وودَّعني واختفَى.

وكنتُ مشغولاً بنقشِ اسمي على الصومعَة، وقد انصَبَّ اهتمامي على تكبيرِ الحروفِ وتعْميقها، فلم أَنزِلْ لوداعِه، ولا لسؤالِه كيف أعودُ إلى الطريقِ العامِّ.

ولم أُفِقْ من استغْراقي حتى حَفَرْتُ آخرَ حَرْفٍ، ونظرتُ إلى الاسم بكثيرٍ من الفخرِ والغُرورِ. ونزلت لأنظُرَ إليه من الأرضِ، فلاحظتُ أن آجُرَّاتِ الشاعرِ الكبيرِ ما تزالُ في مكانِها. فوَسْوَسَ لي الشيطانُ أن أُضيفَها إلى آجُرَّاتي الثلاثِ المتواضعةِ، وأكتبُ اسمي في مكانٍ أرفعَ فوقَ حزامِ الصخرةِ.

ونظرتُ حولي فلم أَرَ أحداً، فمشيتُ إلى آجُرَّاتي ورفعت إحداها لأضعَها فوقَ آجُرِّ الشاعرِ الكبيرِ. ولم أكَدْ أضعُها، حتى اختفَتْ الآجُرَّاتُ الستُّ من تحتِها، ووقعتْ على الأرضِ وانكسرتْ إربًا صغيرةً يستحيلُ جبْرُها!

وباختفاءِ الآجرَّاتِ الستِّ، عاد الفزعُ البارِدُ إلى قلبي،

ووجدتُ نفسِي هائمًا على وجُهي في الغابةِ، مرةً أخرى. ولم أتوقّفْ إلا عند نارِ بعض الحطابين، فدلوني على الطريقِ.

* * *

ومرتْ أربعونَ سنةً قبلَ عودَتي، مرةً أخرى، إلى جبلِ العَلَمِ.

وكنتُ هذه المرة راكبًا سيارةً جديدةً. وما إنْ وصلْتُ إلى المكانِ الذي كنتُ خرجتُ منه عن الطريقِ، حتى توقفتْ بي السيارةُ وحْدَها، دون سببٍ واضحٍ. وفحصتُ جميعَ المؤشّراتِ، لعلّني أعثُرُ على سببِ التوقُّفِ، فلم أجدْ شيئًا، وأَشْعلتُ ضوءَ الطوارئِ، ووقفتُ أنتَظِرُ مرورَ سيارة.

وكان الصَّمْتُ مطلقًا، فترامت إلى سمْعي، من داخلِ الغابةِ، أصواتٌ بعيدةٌ لم أستطعْ تمييزَها. وأقفلتُ السيارةَ، ودخلتُ الغابةَ، مُرْهِفًا سمْعي إلى الأصواتِ النائيةِ. وكُلّما اقتربتُ، زادتِ الأصواتُ ارتفاعًا ووضوحًا. فقلت في نفسي، لعلّها سوقٌ محلّيةٌ في مكانٍ قريبٍ داخلَ الغابةِ، قد توجَدُ به ورشةُ ميكانيكي.

ولم يخطُرْ على بالي ضَلالي القديمُ بنفسِ الغابةِ. وإلا ما كنتُ تجرَّأتُ على الدخولِ. وفجأةً، وجدتُ نفسي في الساحةِ القديمةِ. وإذا المِسَلَّةُ الرخاميةُ الملساءُ ما تزالُ كما كانت في مكانِها شامخةً ورديةَ اللونِ. إلاَّ أنني، هذه المرة، فوجِئتُ بعشراتِ الأولادِ والبناتِ، يحاولون نقشَ أسمائِهم عليها، ويتسلق بعضُهُم أكْتافَ بعضٍ، وهُمْ يتخاصَمون ويتشاتَمون ويتلاكَمون ويتشابكون بالأيدي ويتَرافَسُون بالأقدامِ ويتعاركون بعُنفٍ وقَسْوةٍ، كسِربٍ مُتَوحِّشٍ من القِرَدةِ، وأزاميلُهم تَنْزَلِقُ على الصخرةِ، دون أن تتركَ عليها أثراً يُذْكَرُ!

وتأمَّلْتُ الرهْطَ المتنافسَ المُتطاحِنَ، فإذا هُمْ ليسوا أطفالاً بالمرَّةِ، بل رجالٌ ونساءٌ أقزامٌ قِصارٌ، ذوو ملامحَ مَنغوليَّةٍ. ولاحظتُ من بينهم رجالاً طِوالا مُكْتَمِلي الأجسامِ، يحاولون الصُّعودَ على رِزَمِ آجُرِّهم، فيجتَمِعُ عليهم الأقزامُ، ويقفزون فوقَ ظهُورِهم، ويحاولون الوقوفَ على أكتافِهم للوصولِ إلى مكانٍ أعْلَى من الصخرةِ، فيأتي منهم من يُمسِكُ بسيقانِهم، ويغرِزُ فيها أسنانَه، أو يسحَبُهُم إلى الأرضِ، ويشْتبِكُ معهم

في عِراكٍ كعراكِ الكلابِ أو أشدَّ ضراوةً، ويرتفعُ الهريرُ والنهيقُ والنباحُ وقهقهةُ الضِّباعِ وشخيرُ الخنازير!

ونجحَ أحدُ كبارِ الرجالِ في التخلُّص من الأقزامِ، والصعودِ فوقَ آجُرَّاتِه العشرينَ، وقد علَّقَ مِطرَقَتَهُ وإزْميلَهُ بحبلٍ في عُنُقِه. وما كاد يبدأُ النقشَ حتى اجتَمَع الأقزامُ عليه، وصعدَ بعضُهم على أكتافِ البعضِ، إلى أن وصلوا إليه، وأمسكَ أحدُهم بساقِه، وأخذ يذغْذِغُ أخمَصَ رِجْلِه بأظافره، فأخذ يصيحُ، وفقدَ التوازُنَ، وراح يُلوِّحُ بذراعَيْه ليحتَفظَ بموقفِه، وهُمْ يتضاحكون! وسقطتِ المطرقة على بَنَانِه، فرفع قدمَه وهوَى على الأرْضِ فاقدَ الوعي!

وتراجعْتُ أنا، خشيةَ أن يروْني. ولكنَّ حركتي لَفَتَتْ انتباهَهُم، فتوجَّهوا نحْوي، وهم يصيحون باسْمي فَوَلَّيْتُهُم الأدبارَ، وانطلقُوا هم في أَثَري ككلاب الصيدِ، مكشرين عن أنيابِهم الظامئةِ إلى دَمي! ولم أشعُرْ إلا وأنا داخلَ سيارتي.

وبمجرَّدِ ما أدرتُ مفتاحَها، قام المحَرَكُ وانطلقتْ بي صاعدةً الجبلَ، وأنا أحمدُ اللهَ، وأستعيذُ به من شَرِّ ما خَلَقَ!